

دموع

أسامة حرواش

على مر العصور والأزمنة تضارب مفهوم الحرية بين مد الطبقة وجزر الحقوق والإنسانية وبين كل موجة و موجة تحتضن الحرية قصة جديدة، و بعض هذه القصص يعتبر نضالا من أجل المبادئ و حربا ضد العبودية و الاستبداد فرغم الكم الهائل من المآسي و الأحزان تبقى أحداثها محفورة في ذاكرة الحرية لتحكيها عندما ترسو على شواطئ التاريخ.

في إحدى القرى المعزولة بين الجبال العالية تبدأ الحكاية، حكاية ألم ومعاناة...

تعيش في كوخ أتعبه الزمن وعوامل الطبيعة بارد برودة زوجها القاسي الذي يمارس عليها كل أنواع العنف والعبودية، وبينما هي تسحب دلو الماء من البئر المتجمد ناداها قائلاً:

- دموع تعالي ودلكي ظهري قليلا فقد تشنجت من كثرة النوم.

ذهبت دموع مسرعة إليه مخافة المصير الدامي الذي قد تعانیه إن تأخرت،

دلكت ظهره وانصرفت لإكمال مهامها من تنظيف وطهي وغسل وجلي وكان عزائها في كل ذلك بناتها الثلاثة اللاتي تعاني نفس ظروف القهر و الاستبداد فهن محرومات من مخالطة الناس و من الدراسة و لا يأكلن شيئا غير بقايا الطعام التي يتركها أبوهن، و تلك الملابس البالية التي تشبه الخرقة تكسو جسدهن الهزيل، نعم إنها معاناة العائلة منذ خمسة عشر سنة.

وفي يوم من الأيام جاء رسول الى السيدة دموع ليخبرها بأن والدتها تحتضر، والدتها التي لم ترها منذ أن تزوجت فقد كان الزوج الظالم يمنع الزيارات في بيته ويمنعها هي من الذهاب الى بيت أهلها.

ذهبت دموع إلى الزوج بخطوات متناقلة لتطلب منه رؤية أمها قبل الموت، وما إن أنهت كلامها حتى صفعها صفعاً أسقطتها أرضاً، وانهاled عليها بشتى أنواع السب والشتم، لتحمل دموع دموعها كعادتها و تذهب لاحتضان أطفالها كوسيلة منها للنسيان لكن هذه المرة لم تستطع و تذكرت كل المعاناة و العبودية التي عاشتها في حياتها هي و بناتها، فاستجمعت قواها و تسلحت بفكرة ضمان مستقبل أفضل لبناتها، تمردت على عادات مجتمعها الذي ينبذ المطلقة و ثارت في وجهه:

- أريد حريتي... أريد الطلاق.

لحقها بناتها وقمن باحتضانها وقلن في ثبات:

- ونحن كذلك، سيحاسبك الله على كل شيء.

تبسم ابتسامه خبث وقال: «تردن حریتکن إذن...»

ذهب الزوج الظالم إلى القبو وأخذ مجموعة من الحبال، جر دموع من شعرها واقتادها إلى البئر و قام بربطها حوله و كبل أيدي بناته الثلاث أمام مرأى دموع التي بقيت صامدة و كأنها كانت تعرف ثمن الحرية التي طلبتها و عقلها مشغول بمصيرها و مصير بناتها ليوفظها هول المنظر من ثورة الأفكار، إنه الأب يرمي ببناته في البئر لتنادي مفاجئة:

- ماذا تفعل!!!، توقف، توقف، إنهن بناتك...

لكنه يستمر بفعلته الشنيعة دون أدنى رحمة أو شفقة ثم دخل الى بيته وأشعل سيجارته وجلس على كرسيه خلف النافذة الموصدة وهو يرى عذاب الأم ويسمع صرخاتها وبكائها بينما الليل الجلي البارد قد خيم على المكان.

تنادي الأم على بناتها وصرخاتهن قد بدأت تتناقص شيئاً فشيئاً وهي في كل لحظة تتمنى أن لا تتقطع تلك الأصوات حتى و إن كانت أصوات ألم و عذاب و لكن هيهات شدة السقوط و برودة المياه حالة دون تلك الأمنية ليلفظن

آخر أنفاسهن ويتمزق قلب دموع الذي لم يعد يشعر بشيء.

رغم كل ذلك لم تكن دموع نادمة إطلاقاً، على الأقل قد حاولت الضفر بحريتها وحرية بناتها، وإن لم تستطع فعل ذلك فقد منحتهن حياة أفضل عند رب رحيم.

بزغ فجر اليوم التالي وهو يشهد ملحمة سيخلدها التاريخ على مر العصور، نضال وكفاح من أجل الحرية، حرية دفعت دموع وبناتها ثمنها غالياً، لكنهن في النهاية حررن أرواحهن المتعبدة من جبروت الظلم والاستعباد لتتحول بذلك لحظة الحرية التي لطالما حلمن بها إلى حرية سرمدية.
